مجلة المفكر

2661-7498 EISSN

ISSN :2543-3830

المجلد 5 العـــدد:2 (2021)، ص 269- 296

الرحلات العسكرية المحلية مصدر لكتابة تاريخ تحرير وهران الثاني– الرحلة القمرية أنموذجا–

Local military trips are a source for writing the history of the second liberation of Oran - the lunar flight as a model–

بن فاطمة حليمةBen Fatma Halima ، جامعة الجزائر 02-مخبر المخطوطات، ahlamehalima492@gmail.com

حساني مختارHassani Mokhtar، جامعة الجزائر02 مخبر المخطوطات، hassani.mokhtar68@gmail.com

المؤلف المرسل: بن فاطمة حليمةBen Fatma Halima ahlamehalima492@gmail.com

تاريخ الاستلام: 05 /2021/07 تاريخ القبول: 22 /2021/09

ملخص:

تعتبر المخطوطات من بين المصادر الأولية لكتابة التاريخ، وذلك لانها مصدر مباشر للأحداث وبيان الحقائق، و هو ما ينطبق على رحلة ابن زرفة التي تجمع أهم الوقائع التي شهدها تحيري وهران النهائي من الغزو الإسباني، وجاءت تحمل عنوان" الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"، وهي مؤلف رسمي لانها جاءت بطلب من الباي محمد الكبير، وعند قرائتها وجدنا أنها تؤرخ للتحرير الذي طالما اقتصر الخوض فيه على أقلام وشواهد أوربية، والتي كانت تكتب بنوع من الذاتية والفوقية من منطلق ديني وعسكري يعتمد على مبدأ القوة.

ومما تتميز به الرحلة أنها ناقشت عدد من المواضيع التي لها صلة بالجهاد، والأنساب،، وفكرة رباط وهران ومراحل تجهيزه، وتجنيد الطلبة له، وما كان يدور بين الباي محمد والقائمين عليهم، وما زادها دقة ومصداقية هو أنه المؤلف كان مكلفا بالرباط، وسجل البريد الذي كان بينه وبين الباي، والمواضيع التي كانت بينهم. وهو ما نريد الإحاطة به من خلال هذه الورقة البحثية.

كلمات مفتاحية: الرحلة القمرية؛ ابن زرفة ؛الباي محمد الكبير؛ تحرير وهران النهائي ؛ رباط وهران.

Abstract The manuscripts are among the primary sources of history writing, because they are a direct source of events and the fact-finding, and they are the same as Ibn Zorfa's journey, which brings together the most important facts that the final Oran investigation witnessed from the Spanish invasion, and they came under the title of "lunar trip in the Mohammadiy "

. It is an official author because it came at the request of Bai Muhammad

The trip was characterized by the fact that it discussed a number of topics related to jihad, the idea of Rabat and Oran, the stages of preparing it, the recruitment of students, what was going on between the Bai Muhammad and their leaders, and what was increased in accuracy and credibility is that the author was entrusted with the link, and the mail record he had with This is what we want to be briefed through this research corridors.

Keywords Lunar flight; Ibn Zarfah; Al-Bai Mohamed Al-Kabir; final release of Oran; Rabat and Oran.

1. مقدمة:

تعد فترة تواجد السّلطة العثمانية في الجزائر من بين الفترات التي كانت لها صبغتها الواضحة في تاريخ المغرب الكبير عامة والجزائر خاصة، والملاحظ عنها أنها شغلت العديد من المؤرخين والمهتمين بتاريخ المنطقة على رأسهم الأوربيين، فنجدهم قد خاضوا في كل المجالات المتعقلة بذلك لا سيما إذا تعلق الأمر بالغزو الاسباني للسواحل الجنوبية للمتوسط، وهذا لا يعني أنه لا توجد كتابات محلية حول الموضوع، إلاّ أنّها لم تأخذ نصيبها من الاطلاع والنّشر والتّحقيق، ولأنّها بقيت حبيسة رُفوف المكتبات الخاصة، والزّوايا والأرشيف الأوربي الذّي استحوذ عليها خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية التي عقبت التّواجد العثماني.

ونحن في هذه الورقة نحاول استعراض قراءة في إحدى تلك المخطوطات التي اعتنت بتسجيل مجريات التّحرير الثاني لمدينة وهران من الغزو الاسباني، الذي دام بها حوالي ثلاثة قرون من الزمن(1492-1792م)، و التي تعود إلى صاحبها"ابن زرفة الدّحاوي" وجاءت تحت عنوان"**الرّحلة القمرية في السّيرة المحمّدية**"، وهي تعدّ من الكتابات الرّسمية التّي تناولت التّحرير عن قُرب، باعْتبار المؤلف كان مسؤولا عن الطلبة المشاركين في رباط وهران، وجاء تأليفه تنفيذا لرغبة الباي محمد الكبير قائد الحملة وصاحب فكرتها، وعليه يمكننا التّعرف على أحداث الحصار والتّحرير النّهائي لوهران من خلال مصدر محلي وخروج كتاباتنا التاريخية من المكتبات الأجنبية وما جاءت به الأقلام معادية، أو الدخيلة على التّخصص، والتّي كانت تحرّكها دائما الجهات المقابلة من الصّراع وأغراض ذاتية أو سياسية.

وللإجابة على الإشكالية التي طالما طرحت نفسها على الأذهان والمتمثلة في: كيف يمكن أن تكون رحلة ابن زرفة مصدرا محليا يؤرخ للتّحرير النّهائي لوهران ويبين حقيقته التّاريخية في ظلّ الكتابات الأوربية التّي تناولت والموضوع وأسهبت فيه؟، ولتوضيح ذلك كان لزاما علينا المرور على مجموعة من الأسئلة الفرعية التّي تصب في نفس القالب، والإجابة عليها، والتّي منها:تعريف فن الرّحلة، تعريف المخطوط، من هو ابن زرفة-مولده- آثاره- مكانته ومكانة رحلته؟-مكانتها العلمية والتاريخية-، و ما هي أهم الأحداث التي تناولتها-الرّحلة-؟.

2- تعريف فن الرحلة:

الرّحلة من الفنون الأدبية الفريدة التي لها مقوماتها الخاصة بها، وذلك لما يميزها من تنوع وتداخل مضامينها وموضوعاتها، وشموليتها لباقي الفنون الأدبية الأخرى، فهي تعتبر مجالا لجمع النصوص والأغراض

الشعرية والنّثرية، ولهذا وجب علينا التعريف بهذا الفن قبل أن نخوض في أنواعه، ونعرّج على الأنموذج الذي بين أيدينا.

جاء في معجم "لسان العرب" أنّ:" التّرحل والارتحال بمعنى الانتقال، وهو الرحلة والرُّحلة، والرّحلة: اسم للارتحال للمسير، ويقال : دنت رحلتنا، ورحل فلان، وارتحل وترحّل بمعنى"[1]، وفي "تاج العروس" لها عدّة معان مختلفة تأتي حسب الاستعمال، فمنها" الرّحلة بالكسر للمسير، وبالضّمّ للمقصد الذي تريده، وتأخذ فيه، والرُّحلة: السفرة الواحدة، وتعن كذلك الهضبة المعروفة.."[2]، أما اصطلاحيا: الرحلة ليست نصا تاريخيا فحسب، بل هي نص أدبي كذلك، يميزها أسلوب أدبي رصين، وعبارة عذبة مسبوكة بحذق"[3]

أمّا عن دوافعها، فهي متعددة عند العرب، أهمها:الدافع العلمي: لطلب العلم في مختلف الأقطار، وملاقاة العلماء، وجمع الإجازات، الدافع الجهادي: كالغزوات والرباطات، والسياسي: ما كان في المهمات الرسمية والعسكرية، والاقتصادي: للتجارة والتسوق، والاجتماعي للمناسبات المواسم، والذاتي الذي يكون لأغراض شخصية والتعرف على البلدان[4]

وبالنسبة لأنواعها، فهي تنقسم حسب دوافعها، أهمها: الرحلة الدينية، والعلمية، والتجارية، والسياحية، والرسمية، والحربية..إلى غيرها من الّأغراض أو الأساليب التي تجعل منها نمطا متميزا عن غيرها، وحتى لا نغفل شروط التي يجب توفرها في مؤلفها الذي يتحلى بثقافة واسعة، ودقة في الملاحظة، والتقاط الملامح المعبرة، ومشاركة في عدد كبير من المعارف لاحتواء الرحلة على معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ، والجغرافية، والفلسفة والاجتماع والأدب، وتفرض الأناقة في تخير المفردات، وصياغة العبارات، وتنسيق الفصول.."[5]

3- الرحلة القمرية:

تختلف هذه الرحلة عن باقي الرّحلات التي عرفتها الفترة العثمانية في سببها، والباعث إليها؛ فنجدها عبارة عن استجابة المؤلف لرغبة الحاكم محمد الكبير، الذي طلب منه بصريح العبارة أن يسجل له مجريات

وحوادث رباط وهران الذي كان المؤلف مسؤولا عنه بأمر من الباي، وهي رحلة ذات طابع رسمي فرضتها أوضاع أمنية مرتبطة بالاحتلال الاسباني لوهران، فهي بذلك تؤرخ لأحداث تاريخية، وتخلد سيرة الباي محمد الكبير..."[6]

3- 1-سبب التّأليف:

وقد جاء في بداية المخطوط وعلى لسان المؤلف سبب الذي كان وراء التأليف بصريح العبارة؛ قائلا:" ولما كان الإمام فخر الملوك،...أبو الفتوحات السيد" محمد باي" ابن الأمير...حتى قبض بحسامه ختام وهران،...فوجب أن تثبت رحلته كلها في الدواوين،...وكنت أرعى روض المماطلة، خمولا عن الظهور في مضمار المفاضلة، لا تهاونا بأمره، وكيف وأنا أراه كالمكتوبات، ولا أميزه عن المفروضات، ولكن تفاديا من قصور سهمي عن هدف إرادته، وانحرافا عن الثقة بنفسي في عمله ما يصلح لخدمته،... إلى أن حقق الله تعالى الأماني، بتبسم الثغر الوهراني،...وقد كنت بحمد الله تعالى أسجل مراحله ومناهله،...لا على وجه التأليف، بل على سبيل اللف والتصنيف، ولما عزمت على الانطلاق، وعقدت لتقييد الرحلة حبل النطاق، ودخلت إلى مجلسه الرحيب،...فكان من سابغ فضله أن زودني من خزائن كتبه، ما استظهر به على ما أنا بصدده، فكان كالدليل المعين على السفر بزاده، والطبيب الذي أتحف المريض بجميل أياديه، فتلقيت حينئذ حمله بالكاهل واليدين، ووضعته على الرأس والعين، واقتربت لإملاء تلك السيرة المحمدية، وترحيل قمرها بدر السعادة الأبدية..."[7]

3. 2-التّعريف بصاحب الرّحلة:

هو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن رزقة الدحاوي، وهو أحد شرفاء منطقة غريس بمعسكر، ينتمي إلى أسرة علمية اشتهرت بالعلم الكثير، ومن أفرادها عبد الرحمن بن علي المعروف

بدحو بن زرفة[8]، أما نسبه الكامل فهو" أبو عبد الله محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة بن عبد الرحمن بن علي بن عثمان بن عيسى بن عثمان بن عيسى بن عقيل بن احمد بن محمد بن احمد، من أبناء ابن راشد بن يحي بن علي بن حمود بن ميمون بن علي بن عبد الله بن عمر بن ادريس بن ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن[9]، ولتأكيد نسبه الشريف، نجد الغريسي يشير إلى ذلك قائلا:"فمن أعيان الأشراف الذين لا شك في شرفهم، ولا خلاف أولاد سيدي دحو أبي زرفة، وهذه القبيلة من أصح القبائل نسبا، وأوضحها حسبا، وأشدها بأسا وأعظمها في القديم جاها، وأكثرها تعاطيا لله للعلوم، وأولاها بتحقيق المنطوق والمفهوم، ولجدهم احترام عند ملوك الأتراك[10]، ويضيف قائلا:" وكانت الرياسة فيهم زمن ولاية الأتراك، وأيام الأمير مولانا عبد القادر"[11]

وهو من تلاميذ أبي راس الناصري، الذي عرفه بقوله:" كبير العلماء العاملين والجهابذة الفاضلين، الذي لا يتحرك إلا بقلب حاضر... تلميذنا الشيخ مصطفى بن عبد الله بن دحو... كاتب بارع، ناظم ناثر، ذو المعاني والإعراب والفنون والآداب، مع الحسب الأصيل[12] ، كان مدرسا في المدرسة المحمدية، وشغل منصب الكاتب الخاص للباي محمد الكبير الذي عينه كمساعد لرئيس رباط "ايفري" بوهران خلال الحصار الذي ضرب عليها من طرف الجزائريين، وكان متكلفا بشؤون الطلبة المشاركين في الحصار وتوفير كل ما يحتاجونه من تموين وأسلحة، وبعدها عين قاضيا للمدينة إلى أن توفي"[13]؛ حيث شارك بنفسه في الهجوم الشامل عليها إلى غاية تحريرها نهائيا سنة1792، ليكلفه الباي بعدها بتسجيل حوادث الفتح كلها، وتسجيل الأرزاق والمؤن التي كانت تقدم أثناء عملية الفتح لطلبة وعلماء الرباط.[14]

له كتاب" فتح وهران وجامع جوامع الحسان" الذي يرجح أن يكون هو نفسه " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"، وكان ابن زرفة من ملازمي الباي الذي كلفه بتسجيلها ، فقد أشار إلى ذلك ابن سحنون الراشدي قائلا:"...لما انزل الطلبة ب"ايفري" أمر السيد مصطفى بن عبد الله، وهو إذ ذاك معهم بتقييد الحوادث الواقعة فيما يتعلق بالجهاد، وما يصل الطلبة من رزق وغيره، فقيد قليلا، ثم اشتغل عن

التقييد إلى أن حصل الفتح، فهو الآن يتلقى الأخبار من أفواه الرّواة، ويجمعها من الرسائل وغيرها، ويضمها إلى ما قيّده حتى يصير المجموع إن شاء الله كتابا"[15]

وأشار إلى ذلك أبو راس في"فتح الإله ومنته" قائلا:" ألف كتابا في فتح" وهران" لم يسبق إليه" وأضاف" وله كتابات على أسئلة كبار، كأنها من "الدرر"[16] أو" العيار"[17]، ومناظرات وأجوبة مع العلماء وأدباء، وله أيضا في مدح رسول الله–صلى الله عليه وسلم– قصائد فيها من البلاغة عجائب وغرائب، وبالجملة أني لم أر من يخلفه في الغالب، فهو خاتمة ذوي التحقيق والتدقيق، يعجز عن أوصافه الحميدة كل نطيق، مع عقل وديانة، وعفاف وكفاف، وصيانة"[18]، ويذكر أن له مؤلفات أخرى، منها" الاكتفاء في حكم جوائز الأمراء والخلفاء"، وموضوعه صحة منح الأمراء والخلفاء أراضي للناس من أجل تعميرها، كما له كتابات على أسئلة كبار العلماء ، إضافة إلى قصائد في أغراض مختلفة[19]

وقد حضي بالتّقدير والاحترام من العلماء والأدباء المعاصرين له، أمثال أبي راس الناصري الذي سجل إحدى قصائده في كتابه" فتح الله ومنته"[20]، ولهذا نجد أن الباي محمد الكبير عندما شيّد قبة البرج الأحمر بوهران سنة1207هـ/1793م، وفي قاعة جلوسه كتب أبيات من قصيدته[21]، وبعد فتح هذه المدينة وتحريرها، عين المؤلف قاضيا بها إلى أن توفي بالطاعون عام1215هـ/1800-1801م[22] في عهد الباي عثمان بن محمد الكبير.

4. التعريف بالمخطوط:

4. 1– عنوان المخطوط وتاريخ تأليفه:

مما تميز به هذا المخطوط هو ذكر صاحبه لعنوانه في بدايته بقوله:"... وأسميتها" **بالرّحلة القمرية في السّيرة المحمدية**"[23]، ويبدو من العنوان أنه ينقسم إلى قسمين ويفسر ابن زرفة ذلك قائلا في الأول

منها:"... واقتربت لإملاء تلك السّيرة المحمدية، وترحيل قمرها بدر السّعادة الأبدية، وتحرير منازله القمرية، ...أن نترجمها بشهور السّنة القمرية، وموضع فصولها مشاهير الوقائع المحمدية، دائرا فيها مع دوران الفلك القمري، متبركا في تعدادها بالنّقباء الإثني عشر، فكل شهر ترجمان سيرته.."[24]، والثّاني والأكيد أن السّيرة المحمدية، يقصد بها سيرة الباي محمد الكبير.

والمخطوط يظهر أنه من جزأين، ونحن توفر لنا الجزء الأول فقط، بدليل أنه المخطوط توقف عند آخر شهر جمادى الثاني، ولم يذكر المؤلف أنه أنهى كتابه، أو له ما يتممه، ويبدو أنه مبتور هو الآخر. ولا تظهر عليه أي هوامش تشير إلى ذلك، كالأشهر والسنوات، أو اسم من قام بنسخه.

4. 2-أسلوبه ومنهجه في التأليف:

جمع ابن زرفة بين المنثور والنظم في جميع فصول كتابه، فنجد يستشهد بأحاديث نبوية ووقائع تاريخية شهدها العالم الإسلامي على مرّ العصور ، وبقصص وأمثال من المأثور، وبقصائد لمختف الشعراء العرب ، وبقصائد من تأليفه هو، خاصة ما كان منها في مدح الباي محمد الكبير، ومشروعه الجهادي، والمشاركين فيه. وكل ذلك في سبيل المقارنة بين الفتوحات الإسلامية وفتح وهران، ومما يثير الانتباه هو حبه للكلام المسجوع، والمحسنات البديعية الموجودة في نصه، وذلك لتّأكيد أسلوب المدح الذي خصّ به الباي محمد الكبير.

ونجد أن ابن زرفة أشار إلى أسلوبه هذا قائلا:"...محليا ثبات الشهور فما حضرني فيها من الآثار، مقلدا نحورها بقلائد العقيان الأخبار، تشبثا بأذيال النبي-صلى الله عليه وسلم- بقدر الإمكان..."[25]

5. دراسة المخطوط:

5. 1-مصادر المؤلف:

لقد ذهب جمهور المنظرين والمحققين إلى أن الرجوع إلى مصادر المؤلف أمر ضروري، لأنه يضيف اطمئنانا إلى صحة النص المحقق، ومزيد من الوثوق بسلامته،[26]فبالإضافة إلى القرآن الكريم، فلقد تميزت

المصادر التّي اعتمد عليها ابن زرفة بأنها مصادر صوفية محضة، ذكر أصحاب و عناوين أغلبها، أما الباقي المصادر لم يذكرها، وإنما اكتشفناها في إطار البحث عن تخريجات النّص. وتتمثل المصادر التّي صرّح بها في:

– كتاب "**الفتوحات المكية**"لصاحبه محمد علي محيي الدين ابن العربي الحاتمي الطائي، اكتفى بذكر ابن العربي دون كتابه،و "**الطبقات الكبرى**"عبد الوهاب ين أحمد بن علي بن الشعراني الأنصاري، والذي كان يذكرهما بالتناوب أحيانا، أو مع بعض في أخرى، واقتبس منه في حديثه عن كرامات الأولياء، والترجمة لبعضهم من علي الخواص[27]،و"**روض الناظرين في التعريف بالأربعة المتأخرين في مناقب الشيخ القطب أبي سالم شيخ ابراهيم التازي**–رحمه الله تعالى– في الترجمة للعلامة لما جاء ذكره في كرامات الشيخ أمحمد الهواري، واستعان في التراجم بكتاب" **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**"، لصاحبه محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، مثلا في ذكر حادثة مجيء عروج رايس إلى تلمسان، والتّي اقتبس فقرتها منه مباشرة، بقوله:" وذَكَر في دَوْحة النَّاشر في ذكر..."[28] ، وكتاب"**الرسالة القشيرية** "لصاحبه الإمام أبو القاسم القشيري(ت465هـ)، استعان به في الحديث عن الأولياء الصالحين وكراماتهم، وكثيرا ما ذكر اسمه. مثلا:".. قال **القشَيْري**:" سمعت ..."[29]، ومن المصادر المحلية لتاريخ الدولة الزيانية كتاب"**بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**" لصاحبه الشيخ الفقيه أبي زكرياء يحي ابن خلدون، والذي اقتبس منه ابن زرفة في التعريف بمن سكن وهران من بني عبد الواد، أتكفى بذكر عنوان الكتاب دون صاحبه بقوله:"..وذكر صاحب "**بُغيَةُ الرُّواد**"، ما نصه:.."[30]

– ومن الكتب التخريجات التّي اهتم به المؤلف وكل من عاصره، نجد" **مُختَصَر خَلِيل**" لمؤلفه خليل بن إسحاق بن موسى، ضياء الدين الجندي المالكي المصري المتوفى: 776هـ، في الفقه،والكتاب الذي تكرر ذكره في أكثر من موضع، وكانت أغلب التخريجات تابعة له، خاصة فيما يتعلق بفضل الجهاد منها، وهو"**مَشَارِع الأَشْواق إلى مَصارِع العُشَّاق ومثير الغرام إلى دار السلام**" لصاحبه أحمد بن إبراهيم بن

محمَّد الدمشقي ثمَّ الدمياطي، المشهور بابن النحاس (ت: 814 هـ)، وكان اقتباسه مباشر في أغلب الأحيان بقوله"" ذكر ابن النحاس... روى ابن النحاس،"، أو بذكر عنوانه" وجاء في مشارع الأشواق... جاء في مثير الغرام..."كما لم يغفل"**صحيح البخاري**" للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري(ت194-256هـ)، والذي كان حاضرا في التخريج لعدد من الأحاديث الدينية من بداية المخطوط إلى نهاية، وكان يشير إليه دائما بعبارة"أخرجه البخاري"، و"**صحيح مسلم**" المسمى"المسند الصحيح المختصر من السنن" لصاحبه" محمد بن محمد مرتضى الزبيدي(ت1205هـ)، والدي كان له الفضل في تخريج عدد من الأحاديث النبوية، واعتمد على التخريجات التّي تضمنها "**الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**" لمؤلفه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي ت: 671هـ، وعلى مصنف "**الجامع الكبير – سنن الترمذي**"، لمؤلفه محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى(ت: 279هـ)، بقوله:" أسند الترميذي... روى الترميذي...، واهتم بما جاء في مصنف"**دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**" لصاحبه أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: 458هـ)، وأشار إليه بقوله: روى البيهقي،...جاء في حديث البيهقي.."

- وفي الجغرافيا اعتمد على مصنف"**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**"لصاحبه أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (607-681هـ)، في آثار العرب من الأشعار، والمعالم.[31]

-وكتاب"**معاهد التّنصيص على شواهد التّلخيص**" لمؤلفه" عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن احمد أبو الفتح العباسي(ت963هـ)"، والذي استعان به في الكثير من الأشعار والنصوص الخاصة بالتراجم، وكثيرا ما جاء ذكره بعنوانه دون اسم صاحبه مثلا:" وَصَرّح بِذَلِك في مَعَاهد التَنْصِيص عَلى شوَاهِد التَّلْخِيص.."[32] ، واقتبس بعض الأبيات الشعرية من منظومة"**قلائد الفوائد**" لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.

أما بالنّسبة للمصادر التّي لم يصرّح بها المؤلف نجد بالإضافة إلى مجموعة من الدواوين القديمة والحديثة، منها ديوان" **ديوان زهير بن أبي سُلمى**"[33]،وديوان" **المتنبي** "**والمعري**" ديوان "**امرِئ القيس**"، شرح "**ديوان الحماسة**" في إسقاط إشعارهم على محتوى المتن، وأعمال الباي والطلبة.

5. 2-القيمة التاريخية للمخطوط:

ويمكن حصر أهمية هذا المخطوط من خلال هذه الدراسة- الجزء الثاني منها- فيما يلي:

-اعتباره أحد المصادر الهامة التّي تؤرخ لفترة الباي محمد الكبير، وأحد إنجازاته التاريخية التّي تتمثل في فتح وهران النهائي 1792م، كما يمثل أهم المؤلفات المحلية الخاصة بتاريخ الجزائر في القرن18م، والخاصة بحدث محلي وإقليمي يشير إلى إنهاء السيطرة الإسبانية على أهم الثغور في المغرب العربي، وفي الجنوب المتوسطي.

-تؤرخ هذه الرحلة-الرحلة القمرية-لأحداث تاريخية، وتخلد في نفس الوقت سيرة البطل محمد الكبير باي الغرب الجزائري في العهد العثماني، وتحدد قيمة مشروعه الذي انتهى بتحرير وهران نهائيا.

- احتوى الكتاب على جملة وافرة من أقوال وأشعار عدد كبير من أعلام العالم العربي، والمغرب العربي خاصة الجزائر والمغرب القديمة والحديثة منها، والتّي استشهد بها في عدد من الأحداث والمواقف، إلى جانب بعض من قصائده الخاصة والتّي جاء أغلبها بغرض مدح الباي، كما طغى عليها الحديث عن العلم والعلماء والمناظرات والإجازات التّي يسيطر عليها الجانب الديني والروحي.

-ذكر عددا من مصادر الصوفية المغربية والعربية النفيسة، على رأسها كرامات الأولياء، طبقات الشعراني، والرسالة للقشيري.

-أشار إلى رحلة الأغواط قائلا:" فوجدَه غازيًا بالصَّحراء، غزوَتَه المشْهورة التّي دوّخ فيهَا صُروف الصَّحراء، ومهَّد قُراها، ومَعاقلهَا وحُصونهَا، وحلَّ عِداهِا وهي التّي زَحف بَها لبَني الأغواط، وقد حُشروا كاشِفين سَاقَ الحزَّم والنَّشاطِ، فَفَل جُموعهم، وهُزِم عسَاكرهُم، وثُلم حُصونُهم، وفَتحَ فيهَا قاعِدة أَهل الصَّحراء.."[34]

-لم يغفل ابن زرفة الفتح الأول لمدينة وهران، وأضار إليه مستعينا بأحد أبزر مؤرخيه، وهو الجامعي في شرحه لقصيدة الحلفاوي ضمن كتابه المعنون ب"فتح وهران"، ونجده يستشهد بأشعار في أكثر من موضع مثلا:" ذكر الشّيْخ **عبد الرّحمَن الجَامِعي** في تَاريخه عن المفْتِي المحَقِق **أبي سالم المزياني**..."[35]، وفي موضع آخر مستشهدا به قائلا:" قَال الجَامِعي:" وقَد كَان لهَذا البَاي-رحِمهُ الله-في كفَرَة وهْران وَقَعَات وغَزَوات لمْ يَشُنّ عَليْهم أَحد مِثْله الغَارَات"[36]

- وضّح طريقة التحاق الطلبة بالرباط، وكيفية تجنيدهم على يد الباي ومساعديه، وذلك بداية من قرار استدعاءهم إلى غاية استقرارهم في أماكنهم ووظائفهم داخل الرباط لقوله"... وفي أَثْنَاء هَذا الشَّهْر أَيْضًا أعْلَن بِأنَّه يُرِيد جَمْع الطَّلَبة لرِبَاط **وَهْران**، لما شَاع وَذَاع مِن إبْلائِهم في فَتْحِها الأَوَّل عَلى ألْسِنَة الزَّمَان..."[37]

-تناول فكرة التبرك بالطلبة التّي كان يؤمن الباي وحاشيته، بما فيهم قبائل المحيطة بمدينة وهران، وهي فكرة دينية انبعثت من من تفقه في الدين، ومعرفته بأهمية الرباط في الإسلام، فنجد يقول:".. : فَمِن أَجْل ذَلِك اشْتَدَّت رَغْبَة سَيدِنَا الأَمِير-أمدَّه الله بالعَوْن والتّيسِير-في جَمِيع الطَّلَبة، وتَبَرّكًا بالعِلْم الشَّريف في فَتْحِ الأَقْفَال المسْتَصْعَبَة"[38]

-ولبيان أهمية تبرك الباي بالطلبة، وحرصه على سلامتهم من كل مكروه، وعدم المجازفة بهم بدون معرفة بالنتائج، وقد جاء ذلك في رسالة له إلى ابن زرفة، لما استشهد أحد الطلبة في هجوم له مع أصدقائه على

2661-7498 EISSN
ISSN :2543-3830
المجلد 5 العـــدد:2 (2021)، ص 269- 296

احد الأبراج الإسبانية، قال ابن زرفة:" فَلمَّا وَصَل خَبَر هَذِه المْلْحَمة لسَيّدنَا الأَمِير–أمدَّه الله بالعَوْن والتّيسِير–أَعْظَم الأَمْر إشفاقا، وكَاتَبَنا تَعطُفا وإرفاقا،.."[39] ومما جاء به الخطاب:" والمطْلُوب مِنْكُم الآن هُو أَن تَلْزَمُوا محلَّتَكُم، ودَرْس كُتُبكُم وقُرْآنِكُم، فَإِنَّا إِنَّما قَدَّمْناكم تَبرّكًا بِكُم، ليَكُون قُدومَنا لها بالله لَا بِأَنْفُسِنا"[40]

– كشف ابن زرفة عن الاستجابة الواسعة التّي أبداها طلبة البايلك لدعوة الباي لهم من أجل المرابطة والجهاد، والتفافهم حوله، ووفودهم عليه من مختلف مناطق الغرب الجزائري، ومنها معسكر، مازونة، غريس، التارة، ندرومة...وغيرها بقوله:" فَجَّاسوا خِلَال **تارة** و**ندرومة** وَما وَرَاءهُما مِن السَّواحِلِيَة"[41] ، وحول ذلك قال:" وقَد كَان بَعث خَيْلَه لِكُل نَاحِيَة، وكَلّ حَاضِرة وبَادِية، فَجمَع النَّاس للجِهَاد، ويحْشُدُهم لقِتَال ذَوِي البَغْي والفَسَاد، فَلَبَّى النَّاس دَعْوَتَه، وتَجَنَّبوا مَعْصيتَه، فَجَاؤُوه من كلّ فَجّ عَمِيق، وانْسَابُوا إليه مِن كَلّ قَبِيل وفَرِيق، وأَنْفَقُوا في طَرِيقِهم/و52و/ إليه الطَّارق والتَّالِد، واسْتَطابُوا لأَجْلِه الحرَّ والبَارِدَ، فَفي كلِ وَقْت تفِد عَلَيْه قَبِيلَة بَل قَبَائل، وَفي كلّ سَاعة تَرِد عليْه الجمُوع الهَوَائِل، ومَا جَاءت قبِيلَة إلاَّ أَمَر بها، فاعترضنه بعُدَّتها وعَدَدهَا، ثمَّ عُيّن لها مَنْهل النُّزُول"، وأضاف في موضع آخر واصفا إقبالهم عليه:" ثمَّ تَرادَفَت أَمْدَاد الطَّلَبة وَوُفُودَهُم، وَهَطلَت مِن كُلّ شَارف بُرُودَهُم"[42]

– تحدث المؤلف عن سير الطلبة من مواطن سكناهم إلى رباط وهران، وذكر المناطق التّي مرّوا بها، والمعاملة التّي تلقوها من سكانها، فقال عنهم لما وصلوا وادي الحمام قادمين إليه من معسكر:" هَذَا وبَات الطَلَبة لَيْلَة خُروجِهِم بوادي **الحمّام**، فَأَكْرَمَهُم أَهْلُه بِسَمِين اللَّحم وخَالِص الطَّعَام، والبَعْض ذَبَح الدَّجَاج واسْتَعْذَرت فَإِن الشّتَاء مُضَتُه الهزَال، وَقَبَل الطّلَبة مِنْهُم ذَلِك ولم يُقَابِلُوهُم بجُحُود مقَال، لأَنَّهُم تَلَقَّوْهم بالفَرَح والسُّرُور، والتَّرْحِيب المحبُور"[43]، وأضاف قائلا عند وصولهم إلى وادي التليلات:" وَنَزَلُوا يَوْمَهُم ذَاك

بِوَادِي **التليلات**، وَفَرَّق في طَرِيقِهم بالعَبِيد الغَرَابَة، فَأَكْرَمُوا مَثْوَاهُم، وَأَحسُنوا نُزُلَهُم وَمَأوَاهُم، إذ كَان قَائِدُهُم لَا يُجَارِي في الإِحْسَان إلى الطَّلَبَة"[44]

– لم يغفل ابن زرفة أن يتحدث بلغة الأرقام، والتّي هي من مميزات السجلات الرسمية، وذات أهمية لدى كل كاتب في أي دائرة رسمية، فنجده يحصي عدد الطلبة المجندين، والمؤونة، وباقي التجهيزات، فعن عدد الجند لم يقدم لنا العدد الإجمالي، وانما كان يسجل ذلك متفرقا حسب كل مدرسة وقبيلة الطلبة، فيقول عن مدرسة مازونة:" قَدِم الفَقِيه الصَّالح، المدَرس النَّابِغ، أَبُو المَوَاهِب، شَيْخُنا سَيّدي **محمد بن أبي طالب المازوني** مَتَّع الله المسْلِمِين بِطُول حَيَاتِه، وَنَفَعَنا وإيَاهُم بِبرَكَاتِه، فِيما يَسْمُو عَلى المائَتَيْن مِن الطَّلَبة"[45]، وعن ناحية غريس قال:" وبهَذَا المنْزِل قَدِم طَلَبة **غرِيس**، فِيمَا يَنِيفُ عَلى المائَة فَكَانُوا خَيْر أَنِيس، وَقَد جَاءُوا مُتَسَلِحِين"[46].

– ومن المعلومات التّي أشار إليها ابن زرفة في تقييده هذا هي حرص الباي على المعاملة الجيدة للطلبة داخل الرابط، وحضه المكلفين والمسئولين علي الطلبة بالإحسان إلى الوافدين من الطلبة بإكرامهم، وحسن العطاء لهم، فنجده تحدث عن أماكن التخييم، والخيم، والمؤونة، فنجده يقول عن استقبال الباي لطلبة مدرسته المحمدية:" واسْتَعَدّ للطَلَبة أَوْلًا خَيْمَتَيْن عَظِيمَتَيْن، كُلّ مِنْهُما تحمِل مَانِيف عَلى المائَتيْن، وَعَيَّن الطَبَاخِين والخطَاطِين، وَجَمِيع مَا يحْتَاجُه الطَّلَبة المرَابِطُون في المَال والحِين، كَالأَوَاني والزَّيْت والسَّمْن للتَّصْفِيح والأَكْل، واسْتَعَد لهُم حَتَّى المرَاحِل للوُضُوء والغُسْل"[47]، وقال عن الخدم الذين عينهم لخدمة الطلبة في وادي سيق قال:" وَلما عَبَرُوا **وادي سيق** وَجَدُوا خِيَامًا كَبِيرَة ممَتَدَّة الأَطْنَاب وَاسِعَة الفِنَاء تَتَرآى كَأنجَام الغَاب،...وَتخيَّر لخِدْمَتِهم حَازِمين قَد كَشَفُوا سَاق الجدّ في مُتُون السَّفَر، وَشَمَّرُوا سَاعِد الحزْم، عَلى مُرَاد الطَّلَبة في النَّهْي والأَمْر"[48]، بدون أن يغفل تفكير الباي في الظروف الطبيعية التّي تميز كل رباط عن الثاني، فقد تحدث عن إرسال مجموعة من الجلود إلى الطلبة هناك لاستعمالها أيام المطر، لأن المكان كثر البلل

والطين والحجارة مما يعيق حركتهم، قال:" جُمْلَة وَافرَة من جُلُود البَقَر، لإنْتِعال الطَّلبة أَيام البَلَل والمطَر، إذْ جَبل **وهران** كَثير الأَكْدَار، مُحَدَّدُ الأَحْجَار، لَا يَلْحَق به طَالِب، ولَا يُدْرِك فِيه هارِب"[49]

– تحدث عن تعيين الباي خدمة البريد بينه وبين الطلبة، وتمثل ذلك في إيجاد رسولين منهم يأتيانه على فرسين كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وتظهر أهميتها عندما تحدث عن حاجة الطلبة في منطقة مسرقين إلى المزيد من التجهيزات لما زاد عددهم، ولم يعد تكفيهم الأواني التّي عندهم، وكذا حاجتهم إلى السلاح، فأرسلوا بريدا عاجلا إلى الباي قال عن ذلك:" هَذَا وقَد عَظُمَت بِهَذَا المكَان قُوَّة الطَّلَبة، وكثُرَت لهُم العُصُوبَة، واحْتَاجُوا هُنَاك أَوَانِي الطَّبْخ وقَلّ زَادُهُم، ونَفَدَ السَّمْن إذ كَثُرَت أَمدادُهُم، كَما احْتَاجُوا مَن يُصْلِح لهُم المكَاحِل الفَاسِدَة، والزّنَادَات البَارِدَة، فَكَتَب المشَائِخ بِذَلِك لِسيّدِنا الأَمِير– أمدَّه الله بالعَوْن والتّيسِير– وَذَهب يُرِيد الطَّلَبة، وَرَسُول المكَاتَبَة، لأَنَّ سَيِدَنا الأَمِير–أَيَّدَه الله– استصحب للطَّلبة فَرَسَيْن، وَأَمَرهُم أن يُعيّنُوا بَرِيدَيْن، يأْتِيَان لَه عَلَيْهِمَا عِنْد الحَاجَة، وكُلَّما جَاؤُوه يحْسِن لِكُلّ وَيُؤَدِي لَه أَجْرًا وَخَراجَه"[50]

–كما تحدث عن توفير الباي لشروط الإقامة المناسبة للطلبة، وذلك بتخصيصه لهم مبالغ مالية كبيرة من خزينة البايلك، وسهر على توزيعها عليهم بكيفية محددة، وكان يقوم تتبع مسارها حتى تصل إلى مستحقيها، وكان دائم السؤال عن ما ينقصهم ليوفره في أقرب الآجال، وقد أشار ابن زرفة إلى ذلك في مواضع متعددة، وتقريبا كان هذا الموضوع يأتي ضمن كل مكتوب من الباي إلى الرباط، ومنها قوله:"وَصَار يُرَغِبُهم في الاجتهاد، وَيُوَسِع لهُم في العَطَاء البَاع، وَيعِدُهُم بِفَيْض الإحْسَان، وَرغَد العَيْش المسْتَلْزم طِيب الزَّمَان، وأَن يجْعَل لِلْمدَرِسِين، وأَرْبَاب القِرَاءَات والسَّلاكِين، خَمْسِين رِيَالًا لِكُل وَاحِد، وَإن تَكَاثَر عَدَدُهُم وتَزَايَد، ونَوّه بِأَنّ مَن كَان أَجِيرًا لتَأْدِيب الصّبْيَان، وَشَغَلَهُ الربَاطُ عَنْهُم فَعلَيْهِ أُجْرَتُه زِيدًا عَلى مُطْلَق

الإحْسَان"[51]، وقال أيضا:" فَتَرَوْنَا بعثْنَا لكُم سيّدي **بن عبد القادر بن البوري،** وَبِيَدِه الدَّراهِم اقْسِمُوها عَلى الطَّلَبة، واجْعَلُوا خمسَة وعِشْرين طَالبًا في القِسْمَة، وكُلّ قِسْمة أَعْطُوها خَمْسَة عَشَر رِيَالًا"[52]

-وقد أشار إلى مراقبة أتراك بايلك الغرب لمحمد الكبير، ومسائلتهم له، ومحاسبته على النفقات التّي يرسلها للطلبة، ومعاتبته على ذلك، قائلا:" أنَّ مَا أَمرْتكُم به أَيْسَر عَلى جِهة التَّرْك، إذْ في كَرِيم علْمِكُم أنَّهم يحْسِدُون أَبْنَاء العَرب ويُحَقِرونَهُم بمالهِم عَليْهِم من المُلْك، فَإذَا رَأوْني كُلّ يَوْم نبعثُ لَكُم البَارُود، ونَصِلُكم بأَنْوَاع الخيْر مَع الوُفُود، حسَدُوكُم من ذَلِك، ورُبَّما يتَّسع الخرْق بما هُنَالك[53]، ثم قال:" إذَ لَا تَدْرِي الأَتْراك مَا نَبْعَثه لَكُم مِن النَّقْد تحْت أَيْدي الطَّلائِع..."[54]

-كما تحدث عن التنظيم السائد في الرباط والذي يختلف عن التنظيم العسكري في جيش البايلك، ويعود ذلك إلى عدم تشديد الأمر على الطلبة الذين لم يألفوا مثل ذلك التنظيم في حياتهم، ويظهر هذا عند تعيين مشائخهم كرؤساء عليهم، مع تقسيم وقتهم بين التّدريب وقراءة القرآن وتدارس العلوم، فيقول:" وَنَبّه أنّ لا يُدَرِس أَحَد في بَدْو أَو حَضَر، وَليذْهَب كُل للربَاط يُدَرّس وَلَه مَزِيد الأَجْر، فَرَغّب النَّاس بِذَلِك، وَنشَّطَهُم لنَيْل مَا هُنَالِك، فَلَبَّى النَّاس دَعْوَتَه وَدَرسُوا هُنَالِك نحْوًا وَفِقْهًا"[55]، ويضيف"، فَكَيْف بالّذي قَرأْت فِيه أَكْثَر مِن مائة دَرْس، وَخُتِمَت فِيهَا أَكْثَر مِن مَائَة أَلْف سَلْكَة من كَلاَم رَبّ الجِنّ والإنْس، فَسُبْحَان مَن أَكْرم بُقْعَتَه بهَذِه الكَرَامَة، وأَقَام بهَا هَذِه السُنّة، ولَعُمْرِي أنّه لَرَوْضة مِن رِيَاض الجنَّة."[56]، ووصفهم في موضع آخر قائلا:" فَتَجِدُهُم تَارَة يَقْرَؤُون، وتَارَة يَتَناضَلُون، وطَوْر الفُكَاهة الأَدَب يَتَصارَعُون، فَلا يمُسُهم حُزُن، ولَا تَطْرُق سَاحَتهُم محَن"[57]

-كما تحدث عن تسليح الطلبة، وقد أمدنا بمعلومات وافية، فتكلم عن توزيع المكاحل والبارود بينهم، واهتمام الباي بذلك واسند المهمة إلى شيوخهم، فنجده أشار إلى ما فعله مع طلبة مدرسته الذين كانوا تحت إشراف الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي، والطاهر بن حوا فقال:"ثمَّ دَفَع سَيدُنا الأَمِير-أَمَدَّه الله بالعَوْن والتّيسِير- البَارُود والمكَاحِل، عَلَى يَدَي الفَقِيهَيْن المذْكُورَيْن للْطَلَبة الأَوَائِل وَأَمَرهُما-أيَّدَه الله تعالى-

أن يُدَوِنَا مَن أَخَذ المكَاحِل مِن الطَّلَبة، وأَن يُثَبِت عِنْدهُما اسْم كُل وَنِسْبَتَهُ"[58]، ومنها ما أمره هو كابت رباط إيفري قائلا:" والمطْلُوب مِنْكُم والمؤَكَّد بِه منَّا عَلَيْكُم هُو أَن تَفْعَلُوا مَا كُنْت أَمَرْتُكم بِه مِن تجرِيد المكَاحِل أَو بَاب المخْزَنِية مِن الطَّلَبة بِأَسْمَائِهِم وأَسْمَاء آبَائِهِم، بِأن تَذْكُروا كَبِير كُلّ خِبَاء، وَمَا عِنْدَه من المكَاحِل، وتجْعَلوا كُلّ خِبَاء عَلى حِدَّة، ثمَّ تُجَرِّدُوا مَن لَا سِلَاح لهُم عَلَى حِدَّة، لِنَبْعَث لهُم مَا فِيه كِفَايَة"[59]

–أما ذكر موضوع تدريب الطلبة فنون القتال، استعمال السلاح، واستخدام البارود، وأن الباي لم يغفل ذلك، قال:" لما قَسَّم عَلَى الطَّلَبَة البَارُود **بأم عسكر**، أَمَرَهُم بِضَرْبه في المنَاضَلَة تَعْلِيمًا لهُم، وتَرْوِيحا للْقُلُوب مِن الضَّجَر"[60]

–وصف لنا المعارك والاشتباكات التّي كانت تنشب بين الحين والآخر بين الطلبة الإسبان واحدة تلو الأخرى،مع ذكر تفاصيلها في أغلب الأحيان، مما بين مستوى الطلبة في القتال، واستخدام الأسلحة، والتعامل مع العدو، ومنها ما كان بأمر من الباي كمعركة "كدية الأخيار" قال:" فَلمَا كَان وَقْت الزَّوَال نَزَل/و51و/ بِالرَّبْوَة الزَّوَال بالرَّبْوَة شَرْقِي "**كُدْيَة الخِيَار**" طَالِبًا لِلْنِزَال، وغَارَت الفُرْسَان تمْرَحُ في رِحَاب **وهْران**، وتَتَمعَّن فيمَا فَعَلت بهَا الزّلازِل، وهَل في أَسْوارِها ثَلَمُ لانتهاز فُرْصَة الغَوافِل، فَمِن النَّاس مَن يَقُول إنَّ فِيها مِن الثَّلَمَات كِيتَ وكِيتِ... ولما جنّ اللَّيْل بَعَث سيْدُنا الأَمِير–أمدَّهُ الله بالْعَوْن والتّيسِير– طَائِفَةً من عَسْكَره، وأَمَرَهُم أنْ يُشْرِفوا عَلَى أَحْبِيَة العَدُو مِنْ حيْث ارْتَفَعَت الأَرْض بجِوَارِه، ويَرْمُوهَا بالرَّصَاص بِيَدٍ وَاحِدَة، ولِيَكُن عنْد هُجُومِهِم، لأن ذَلِك أَفْجَع للطَائِفَة الجَاحِدَة، فَذَهَبُوا وأَوْقَعُوا بِهِم ذَلِك مَرَتَيْن، أَحَديهِما عِنْد هُجُومِهِم، والثَّانِية مُنْتَصَف اللَّيْل فَباغَتُوهُم بَغْتَتَيْن، وَوَقَعُوا بِجَنَاب"[61].

– ومن المعارك التّي أسهب ابن زرفة في وصفها أيضا نجد معركة" منطقة أفوال" في جمادى الأولى 1205هـ، والتّي استشهد فيها بعض طلبة المدرسة المحمدية، وعلى رأسهم الشيخ الطاهر بن حوا، قائلا

عن سببها:" هَذا ولما عَلِم الكَفَرةُ ضُعْف الطَّلَبة بانقضاء البَارُود، وقَد عَلِمَت أَن رَحَى الحرْب تَدُور عَلَيْه في الأَمْر المقْصُود، وأَجْمَعوا عَددهُم وعُدَّتَهُم"[62]، ثم عن عدد الطلبة واستشهاد بعضهم يقول:" وفي الفِيَاض قِبْلَتَهُم، فاجلبوا عليْهِم بخَيْلِهم ورِجْلِهم، وركَبُوا ظُهُورهُم، والطَّلَبة لَا يَشْعُرون بِذَلك، ونَالهُم حَسِيس بمَا هُنَالِك، فَلمَّا أشرَفُوا عَلَيْهِم وشَقْوَهُم بالبَنَادِق، وقَد فِيهِم أَهْل الأبْرَاج بِكُور الصَّوَاعِق، فَقَتلوا مِنْهم ثَلاثَة، وبَقُوا بِأَيْدِيهم وِراثَة، وجَرَحُوا نحْو الإثْنَي عَشَر مِنْهُم العَلَامة النَّحْرِير ذُو الاتفاق والتَّحْرير، الفَقِيه الفَرضِي، النَّحْوِي الشَّاعِر العَرُوضي، قَاضي **أم عسكر** وَقْتَئذ ذُو المحَاسِن القُصْوَى **أبو عبْد الله السَّيد الطَّاهر ابْن حَوا**، فَبَات تِلْك اللَّيْلة وَدَمُه يَنْفُح مِسْكا، وَيتَطَهر بِه تَبرَكًا.. ومَات-رَحِمَه الله تعالى-في اللَّيْلَة الثَالثَة، وَهِي لَيْلَة الخمِيس من ثَلَاث أَيام جُمَادى الأُولى مِن سَنَة"[63]

-كما تناول آخر معركة خاضها الطلبة ضد النصارى قبل الفتح النهائي، وهي معركة "الرفافيد"، والتّي كانت في أوائل جمادى الثاني1205هـ، والتّي استعملت فيها الكور-القذائف المدفعية-، والبنادق والبونبات، والتّي شببها المؤلف بالصواعق، في حين لم يكن للطلبة إلاّ المكاحل التّي نفذ بارودها، قائلا:" فَأَضْرَم نَار الكُور والبَنَادِق، والبُونْبَات التّي تُحَاكِي رُجُوم الصَّواعِق، فَخَلَوا سَبِيل الشَّيخ، وَشَدُوا ظُهُور إخْوَانِهِم، وَهُم يَعُضُّون عَلى أَكُفِهِم وبَنَانِهِم، تَحسُرًا عَلى قِلَّة البَارُود، وَيَسْتَغِيثُون بالمالِك المعْبُود، وَيَدْعُون عَلى مَن مَنَعَهُم ذَلِك، وَحَال بَيْنَهُم وَبَيْن مَا هُنَالك، وَلَقَد رَأَيْت كَثِيرا مِنْهُم يحلِف أَشدَّ الإيمَان، أَنَّه لَا يملِك عِمَارَة مُكْحلَتِه مَرَّة، وَلاَ يجِدُ مَا يَلْوِي بِه الكُرَّة، فَيَجْلِس مُبَينًا لعُذْرِه، مُسَلِمًا لحكْمِ الله وأَمْرِه، فَإِذَا رَأَى نَار الحرْبِ قَد اشْتَعَلت لَظَاهَا[64]، وانتهت باستشهاد اثنين من الطلبة، وجرح ثمانية منهم.

-أثار ابن زرفة بعد معركة "الرفافيد"، موضوعا هاما وهو علم الطب، ومعاناة الطلبة من انعدام من هو على علم به في الرباط، وكيف أدى ذلك إلى فقدان أحد جرحى إحدى المناوشات، والذي تكفل أحد الحدادين بنزع شظايا سلاح من رأسه، إلاّ أنه فشل في ذلك. ليقول في آخر القصة: فَانْظُر أَيَّدَك الله

تعالى، ما أجْسَر هَذا الظَّلُوم، وَمَا أَشدَّ عدَاءَهُ عَلى حُدُود الحيِّ القَيُوم، إذْ الطّب عَلم مِن العُلُوم، بَل قَالُوا:" عِلْم الأبدان، مقدم على علم الأديان، وجاهل الطب يضمن موجب فعله بإجماع"[65]

-عدد ابن زرفة العلماء الذين شاركوا في هذا الفتح التاريخي، والذين عينهم الباي على رأس الطلبة، وأغلبهم من شيوخ الزوايا والقضاة في البايلك، ولهم شهرة عند الطلبة والسكان، يقول:"والفَقِيهَان العَامِلَان،... السّيد **عَبْد الله الجلَالي**.. قَاضِي الجمَاعَة وَقْتَئذ السّيد **الطّاهر ابْن حوا**، فَأَمَرهمُا سَيدُنا الأَمِير-أَمَدَّه الله بالعَوْنِ والتّيسِي- عَلى جَمِيع الطَّلبة المرَابِطِين، وَجَعَل لهُمَا الرُّجُوع في الغَثّ والسَّمِين، بَيْد أَنَّ مَلاك الأَمْر بِيَد السَّيد **محمد بَن عَبْد الله** المذكُور، وَشَدّ أَزْرَهُ وعَضُدَهُ بجَامِع المجَادَة سَيدي **الطّاهِر** المسْطُور،... وكَان سيدي **محمد بن عبد الله الجلالي**"[66]، وقال أيضا:" قَدِم الفَقِيه الصَّالح، المدَرس النَّابِغ، أَبُو المَوَاهِب، شَيْخُنا سَيّدي **محمد بن أبي طالب المازوني** مَتَّع الله المسْلِمِين بِطُول حَيَاتِه، وَنَفَعَنا وإيَاهُم بِبرَكَاتِه، فِيما يَسْمُو عَلى المائَتَيْن مِن الطَّلَبة"[67]، معبرا من خلال ذلك عن التقارب الذي كان بين الطلبة وشيوخهم باعتبارهم أهم العناصر المكونة للرباط، فنجدهما معا في مجالس العلم، وفي ميادين القتال جنبا إلى جنب.

- ومن المواضيع الجانبية التّي تناولها نجد موضوع التبرك بالأولياء، و قام ببحث تاريخي عن الولاية ورأي العلماء فيها، وشروطها، وأعلامها، وطرقها، وصفات الولي الصالح، فتحدث عن عبد الوهاب الشعراني، والقشيري، وعلي الخواص، والجنيد، وابن تيمية ورأيه في ذلك[68].

-كما تحدث عن ماء وهران ومنبعه، وكيفية اكتشاف الباي له، والأحداث التّي ميزته، لكي يقطع الطلبة الماء عن الإسبان، قائلا:" هَذا وكَان سَيدنَا...مُدَّة إقَامَتِه بهَذَا الثَّغْر الذّي يَسَّر الله لَه مِن أَمْرِه مَا صَعُب وَعَسُر، يَلْتَمِس أَصْل مَاء **وهران**...كَان فِيه مَلاذ نَفْعِ **النَّصَارى**، وَبِعَظمَتِه تَعْظُم رَزِيتُهُم، وَيَبْقُون

حَيَارَى بَل سُكَارَى، وَجَعَل أَلْف سلطاني لمن أطلعه علَيْهِ، رَجَاء أَن يَكْشِفَه لَه بَعْض **الوَهْرَانيين** مِمَن فَرّ مِنْهَا إليه"[69]، ومن بين هذه الجهود في اكتشاف الماء نجد محاولة قائد الجير والتّي باءت بالفشل؛ حيث قال:" المذكُور يَتَحَسَّس الماء المسْطُور، فَرِح بِذَلِك غَايَة الفَرَح، وأَبْسَط خَاطِره وانْشَرَح، وَوَجه مَعَه مَن لَه مَعْرِفة بنحْت الأَشْجَار، وَأَمَرهُم أَن يَتّبِعوا ذَلِك الشَّق وأَغَار، فَلمَّا وَصَلُوا ذَلِك المَوْضِع المعْهُود، تَمَعَّنُوا فِيه تَمَعُن المتَقِدين في النُّفُوذ، لم يَشْكُوا أنَّه خَرِير مَاء جَارِي، وَإن اسْتَجَدَّت العُقُول أنّ يَكُون مَاء وَجَرَان لِبُعْدِه عَن المجَارِي، ثمَّ أَنْشَؤوا يَحْفِرُون فَوَجَدُوا الحجَر صَمّا لَا يَتَأَثَّر للْفُؤُوس، وَلَه المنَاقِب والمعَاوِل مِن كَأَنَّها السَّد المرْصُوص... فَانْقَطَع حَسِيس الماء الذّي كَان يَسْمَع وَعَدَم ذَلِك الصّيت، فإذَا بِذَلِك الصَّوْت مِن انْعكَاس الرّيح، وَدَوَرَانِه في ذَلِك البَيْت الفَسِيح"[70]، وعن نجاحه في ذلك فقد صور ابن زرفة الحادثة التّي كانت صدفة، وما آلت إليه من نجاح في الأخير، والتّي كانت فوق الوادي الهائج، وكانت عن طريق أحد الرعاة في ذلك الموقع، بقوله:" فَقَال لَه: قَد كُنْت رَاعِي غَنَم في ذَلِك الزَّمَان، فَوَقَعْت ذَاتَ يَوْم فَوْق رَأْس **الهائج** أَرْقَب الأَوْطَان، فَرْأَيْت فَوَارَة كفَوَارَة القِدْر، تَخْرُج مِن شَقّ حِجَارَة مَفْرُوشَة فَدَهَاني ذَلِك الأَمْر، فَذَهَبْت أَقُصّ أَثَر ذَلِك، وَأَقْدَح زِنَاد مَا هُنَالك، فَلمَّا وقَعْت عَلى تِلْك الحِجَارة التَّبي تَخْرُج مِن شِقِها الفَوَارَة، سَمِعْت خَرِير المِاء تَحْت الأَرْض كَالرِيح، وَمُنْذ بَلَغْت مَا رَأَيْت ذَلِك المَوْضِع الشَّرِيح، وَأَخاف أَن يَضْل عنّي فَيَضِيق بي مَعَك المكَان الفَسِيح، فَقَال لي: لَا حَرَج عَلَيْك، اذْهَب الآن فَإن وجَدْتَهُ فستَعْلم قَدْر إحساني إلَيْك"، ثمّ أَمَر بَعْض أَعْوَانِه أَن يَذْهَب مَعَه لتَحْقِيق خَبَرِه، وَقَصّ سِيرَتَه وَأَثَرَه، وكَان ذَلِك الرَّجُل مِمَن أَعْطَى ثَبَاتَ وكَمَال العَقْل، فَلمَا وَصَل إليها، وَجَد تِلْك الفَوَارَة بِحِجَارة حَزُوهَا، وَهِي تَفُور كَمَا ذَكَر، وَحَسِيس الماء يُسْمَع تَحْتَهَا كَمَا سَطّر، فَأَخَذُوا قَصْبَة طَوِيلَة وادْخَلُوها في ذَلِك الثُّقْب فَخَرجَت مَبْلَولة، فَرَجَعُوا فَرِحِين مُسْتَبْشِرين ،وكَيْف لَا وَقَد تكَاملَت أَوْصَاف الماء حَتَّى البَلَل المسْتَبِين، وكَان بَيْن مَرْآه الأَوَّل وَالآخِر، نَحْو الخمْسِين سنَة أَو أَكْثَر، فَاسْتَعْجَبَت النَّاس مِن دُعَاه، وكَان غَيْر مَتَّهَم في دَعْوَاه."[71]

المجلد 5 العـــدد:2 (2021)، ص 269- 296
2661-7498 EISSN
ISSN :2543-3830

– تحدث عن استخدام الإسبان للجواسيس من المغطسين من العرب المتحالفين مع الإسبان والذين اعتنقوا النّصرانية، وسكنوا في وهران، وعن سلبياتهم وأضرارهم على الرباط، والحصار الذي ضربه الباي على النّصارى، مثلما حدث لما التحق طلبة مازونة بالرباط، فأبلغوا الإسبان عنهم مما أدى إلى تعرضهم لهجوم مباغت من النّصارى، إلا أنهم فشلوا في ذلك، قائلا:" إلَّا تِلْك الشّرْذِمَة من الطَّلَبة، القَادِمِين حِينَئِذ مِن **مَازُونَة** مَع الشَّيْخ الّذي عَرَفَت نَسَبَهُ، وَقَد حَقَّر لهَمُ الجوَاسِيس شَأْنُهُم وَأَن أَكْثَرَهُم صِبْيَان ولمْ تَكُن لهم بالحرُوب تجْرِبَة، وَقَدَّرُوا في أَنْفُسِهِم الخَبِيثَة، أَنَّهم إنْ أَدْرَكُوا مِن جَدِهُم حَثِيثَه، يَسْتَأْصِلُون الطَّلَبة عَن آخِرِهِم، فَرِيقًا يَقْتُلون وَفرِيقًا يَأْسِرُون وَيَقْطِعُونَهُم بِأَسْرِهِم، فَعَبَؤُو جُيُوشَهُم، وَحَشَرُوا خِشَاشَهُم، وأَخْرِجُوا مِن غِيرانِهِم عَكارشَهُم[72]، وَسَلَكُوا الوَادِي يمْشُون في ضِلَال كُهُوفِه، مُتَسَتِرِين بأَنجَادِه وَحُرُوفِه، وَبَعَثُوا كِلَاب الهاوِيَة المغَاطِيس، يَنْبَحُون في الطَّلَبة ويجْرُون الذَّيْل مَكِيدَة من الأَبَالِيس، حَتَّى اسْتَوْثَقُوا مِن كَمَال مَكِيدَتِهِم، وَبَقِي النَّصَارى في سَاقِهِم وسَالِفِهِم"[73]، ومن المعارك أيضا التّي كان بعد تدخل الجواسيس نجد معركة منطقة "الأفوال" التّي استشهد فيها الشيخ الطاهر بن حوا–رحمه الله–[74]

–كما ذكر استعمال الباي لبعض المغطسين كجواسيس ومرشدين مقابل إعتاقهم من القتل، أو مقابل مادي، على سبيل المثال أنه دلوهم على قبر الوي الصالح"سيدي أمحمد الهواري" داخل وهران:" وَبَالغَدّ ذَهَبْنا في جُلّ الطَّلبة **للمائدة**، وَأَشْرَفنا كالعَادَة عَلى مَدِينة الطَّائِفَة الجاحِدَة، وَبَقِينا نَنْظُر بالمرآة تَارةً في الأَبْرَاج، وتَارَة في الفَلَوَات، وكَان/و162و/معَنَا بَعْض مَن خَرَج تَائبًا من المغَطَسين، الزَّنَادقة المتَنَصِرين"[75]

–كما تناول موضوع حكم دفن شهداء الرباط من الطلبة، وذلك بعد استشهاد أحد طلبة أمهاجة، وقرر زملاؤه الذهاب به إلى لأهله ليدفن إلى جانبهم، فتدخل ابن زرفة، وأفتى بدفنه في الرباط تأسيا بفعل النبي–صلى الله عليه وسلم– بشهداء غزوة أحد، وتدخل الباي الذي أمر هو الآخر بذلك، بقوله:" ثمَّ أَن ذَوِي محَبَتِه مِن طَلَبة **أمهاجة** أَرَادُوا أَن يَذْهبُوا بِه لأَهْلِهم، فَيَدفِنُونه في مَقَابِرِهِم، وكُنْت أراودُهُم أَن يَدْفِنُوه

بمقْبَرة الشُّهَدَاء، التّي عِنْدَنا **بوادي إيفري** وَهُم يُطِيعُونَني تَارَة، ويخَالِفُوني أُخْرى، فَأَعِظُهُم بِأَنَّ دَفْنَه في مَوْضِعه هُو السُنّة، ولَعَلَها أَن تَكُون سَبَب دُخُول الجنَّة،... كَمَا أَعِظُهم بامتثال أَمْر سَيّدنَا الأَمِير–أمدَّه الله بالعَوْن والتّيسِير– إِذْ كَان كَتَب لَنا قَبْل هَذا أن ادْفِنُوا الشُّهَداء بمَوْضِعِهم، ولَا تَبْعَثُوهُم لأَهْلِهِم"[76]

– كما نجد المؤلف قد قدم دراسة وصفية تحليلية تاريخية واجتماعية لبعض الأضرحة والقباب المشهورة والمزارة من قِبل سكان الغرب الجزائر،كما أنه ترجم لعدد من الشخصيات منها الهواري.

6. قائمة المراجع:

1. - ابن زرفة الدحاوي، الرحلة القمرية والسيرة المحمدية، المخطوط رقم:2597.
2. - ابن سحنون الراشدي، الثغر المجاني، تح وتق: المهدي بوعبدلي، اعتنى به: عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط:01، 2013.
3. - أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية 1709م-1710م، ط:01، تح وتق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ابو ظبي، 2011م.
4. - أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، 2005م.
5. - أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكربم، عالم الكتب القاهرة، ط:01، 1969م.

6. - الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق وتقديم ودراسة: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي.
7. - الطاهر الحسيني، الرحلة الجزائرية في اعلهد العثماني-بناؤها الفني – أنواعها-خصائصها-، أطروحة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2013-2014م.
8. - الطيب بن المختار، القول في بيان انساب قبائل الحشم للعلامة الشيخ، اعتناء: الهاشمي بن بكارة، لمطبعة الخلدونية التلمسانية، ط1، (د. ت).
9. - جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملاين، بيروت، ط:02، 1984م.
10. - صادق عبد الرحمن الغرياني، تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث، منشورات محمد الفاتح للجامعات، ليبيا، 1989م.
11. - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1971م.
12. - فاطمة درعي، العالم مصطفى بن زرفة الدحاوي رحلته القمرية، مجلة الحوار المتوسطي، ع:13-14،دسيمبر 2016م، جامعة سيدي بلعباس.
13. - محمد الأمين بالغيث، الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014،
14. - محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج:29، تح: عبد الفتاح الحلو، مراجعة: أحمد مختار عمر وآخرون، مطبعة الكويت، الكويت، 1418ه/1997م.

15. ابن منظور، لسان العرب، ج:11.

16. أبو راس راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دراسة وتحقيق: بوركبة محمد، الجزء:01، منشورات الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011م.

17. -فاطمة درعي، العالم مصطفى بن زفة الدحاوي ورحلته، الحوار المتوسطي، جامعة بلعباس، العدد 13-14 ديسمبر 2016م.

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج:11، ص:287.

[2] - بالتصرف: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج:29، تح: عبد الفتاح الحلو، مراجعة: أحمد مختار عمر وآخرون، مطبعة الكويت، الكويت، 1418ه/1997م، ص:60.

[3] - أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية 1709م-1710م، ط:01، تح وتق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ابو ظبي، 2011م، ص:37.

[4] - بالتصرف:الطاهر الحسيني، الرحلة الجزائرية في اعلهد العثماني-بناؤها الفني –أنواعها- خصائصها-، أطروحة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2013-2014م، ص ص:81-90.

[5] - جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملاين، بيروت، ط:02، 1984م، ص:122.

[6] - فاطمة درعي، العالم مصطفى بن زرفة الدحاوي رحلته القمرية، مجلة الحوار المتوسطي، ع:13-14،دسيمبر 2016م، جامعة سيدي بلعباس، ص:158.

[7] مخطوط، و و01، ظ و01، و و02، وو03

[8] - عبد الرحمن بن علي المعروف بدحو بن زرفة: احد علماء وأشراف غريس، تصدر للتدريس بمعسكر، من تلاميذه عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، توفي سنة1065ه-1654م، ينظر: أبو زيد

عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، 2005م، ص:15.

[9] - المصدر نفسه، ص: 15-16.

[10] - الطيب بن المختار (المتوفى في غريس في نحو سنة1320ه)، القول في بيان انساب قبائل الحشم للعلامة الشيخ، اعتناء: الهاشمي بن بكارة، لمطبعة الخلدونية التلمسانية، ط1، (د. ت). ص ص329-330

[11] -المصدر نفسه. ص330.

[12] - أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته... ص:72

[13] - ابن سحنون الراشدي، الثغر المجاني، تح وتق: المهدي بوعبدلي، اعتنى به: عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط:01، 2013.ص:155.

[14] - ابن زرفة الدحاوي، الرحلة القمرية والسيرة المحمدية، المخطوط رقم:2597. و و 03.

[15] - الراشدي، المصدر نفسه، ص:155.

[16] - الدرر: كتاب" الدرر المكنونة في نوازل مازونة، أبي زكريا بن يحيى

[17] - المعيار: المعيار المعرب عن فتاوي إفريقية والمغرب، أو العباس احمد بن يحيى الونشريسي.

[18] - أبو راس الناصري، المصدر نفسه، ص: 72

[19] -فاطمة درعي، العالم مصطفى بن زفة الدحاوي ورحلته، الحوار المتوسطي، جامعة بلعباس، العدد 13-14 ديسمبر 2016م، ص: 153.

[20] - المصدر السابق، ص:72-73

[21] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق وتقديم ودراسة: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي. ص: 295

[22] - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1971م، ص:158.

[23] - المخطوط، و ظ:02

[24] - المصدر نفسه، ظ و02- وو03.

[25] - المخطوط، و و03

[26] - ينظر: صادق عبد الرحمن الغرياني، تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث، منشورات محمد الفاتح للجامعات، ليبيا، 1989م. ص: 108.

[27] - المصدر السابق،/و101ظ/

[28] - نفسه: /و36ظ/

[29]- نفسه:/و21و/

[30] - نفسه:/و17و/

[31] - نفسه:/و102ظ/

[32] - نفسه:/و88و/

[33] -ينظر:المخطوط.و33و.

[34] - نفسه: /و24ظ/

[35] - نفسه:/و156و/

[36] - نفسه:/و53و/

[37] - نفسه:/و96ظ/

[38] - نفسه، /و96ظ/

[39] - نفسه:/و142ظ/

[40] - نفسه:/و142ظ/

[41] - نفسه:/و116ظ/

[42] - نفسه:/و110ظ/

[43] - نفسه:/و99ظ/

[44]- نفسه:/و105و/

[45] - نفسه:/و113ظ/

[46] - نفسه:/و107و/

[47] - نفسه:/و97ظ/

[48] - نفسه:/و104و/

[49] - نفسه:/و133ظ/

[50] - نفسه:/و107ظ/

[51] - نفسه:/و97و/

[52] - نفسه:/و133ظ/

[53] - نفسه:/و134ظ/

[54] - نفسه:/و134ظ/

[55] - نفسه:/و97و/

[56] - نفسه:/و108ظ/

[57] - نفسه:/و140ظ/

[58] - نفسه:/و97ظ/

[59] - نفسه:/و160و/

[60] - نفسه:/و140ظ/

[61] - نفسه:/و50ظ-/و51و/

[62] - نفسه:/ و124و/

[63] - للمزيد: نفسه:/و124ظ/

[64] - للمزيد: نفسه:/و140ظ/

[65] - للمزيد: نفسه: /و141و/

[66] - نفسه:/و97ظ/

[67] - نفسه:/و113ظ/

[68] - للمزيد: نفسه:/و150و/-/و150ظ/-151و/-/و151ظ/

[69] - نفسه:/و89ظ/

[70] -نفسه:/و113و/

[71] - للمزيد: نفسه:/و111ظ/-/و112و/

[72] - العكاريش انثى الارانب

[73] - للمزيد: نفسه:/و114و/- /و114ظ/

[74] - للمزيد: نفسه:/و124ظ/

[75] - نفسه:/و162و/

[76] - للمزيد: نفسه:/و141ظ/